المحاضرتان السادسة والسابعة: مصطلح النثر

النثر لغة:

يقول صاحب لسان العرب: "النثر نَثْرُكَ الشيءَ بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر وكذلك نثر الحبّ إذا بُذر" [1] فالمعنى اللغوي يعني الشيء المبعثر (المتفرق) الذي لا يقوم على أساس في تفرقه وبعثرته، أي: لا يقوم على أساس من حيث الكيف والكم والاتساع.

النثر اصطلاحاً:

هو الكلام الذي يجري على السليقة من غير التزام وزن[2]. النثر أدب إنساني، «وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة والكتابة الفنية . ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني . وهي تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة"[3]

نشأة النثر الفني:

إن الباحثين الذين تصدوا لدراسة الأدب الجاهلي قد اضطربوا في تقدير الوجود الأدبي لعرب الجاهلية وبخاصة فيها يتعلق بالنثر، ولم يستطيعوا على الرغم من جهودهم ودراساتهم أن يصلوا في ذلك الموضوع إلى نتيجة ثابتة أو رأي موحد يمكن الاطمئنان إليه.أما هذه الآثار النثرية المختلفة التي تنسب إلى الجاهليين، فيكاد مؤرخو الأدب يتفقون على عدم صحة شيء منها، والسبب في عدم الثقة بهذه النصوص هو أن وسائل التدوين لم تكن ميسرة في العصر الجاهلي. "جاء في العمدة لابن رشيق: "إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره".[4]

الآراء حول نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي:

---

[1]– لسان العرب: ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1992م، مادة (نثر).

[2]– محمد عزام, المصطلح النقدي في التراث الأدبي، ص368.

[3]– الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 12، ص: 15

[4] – ابن رشيق، العمدة، ص8/1.نقلا عن محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث الأدبي، ص369.

يؤكد الدكتور زكي مبارك أنه قد كان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته الأدبية، وأن الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا بعيدا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل أنهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثراً كبيرا بدولة أخرى مجاورة أو غير مجاورة، وإنما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم التي كانت أقرب إلى الانعزال. وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، وإنما يجب أن نلتمسه في مصادر أخرى. ونحن إن فعلنا هذا فسوف نجد بين أيدينا حجة لا تنكر، ودليلا لا يجحد على أن ثمة نثرا جاهليا، ألا وهو القرآن الكريم. فإذا كنا نؤمن بأن هذا القرآن قد نزل لهداية هؤلاء الجاهليين، وإرشادهم، وتنظيم حياتهم في نواحيها المختلفة من دينية، وأخلاقية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية، وأنه كان يخاطبهم وهم بطبيعة الحال لا يخاطبون إلا بالأسلوب الذي يفهمونه ويتذوقونه، وأنه كان يتحداهم في محاكاته، والإتيان بسورة من مثله ولا يسوغ في العقل أن يكون هذا التحدي إلا لقوم قد بلغوا درجة ما من بلاغة القول، وفصاحة اللسان تجعلهم أهلا لهذا التحدي حتى يصدق معناه، إذا كان هذا كله، وأن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب وعلى لسان واحد منهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ تأكد لنا أن العرب الجاهليين قد عرفوا النثر الفني، وأن القرآن يمكن أن يعطينا صورة . ولو تقريبية . عن شكل هذا النثر ومنهجه وحالته التي كان عليها"[1].

وكذلك يعتقد الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بوجود النثر الفني في الجاهلية.[2]

ويرى الدكتور طه حسين بأن النشر الفني بمعنى أنه تعبير جميل رصين محكم يستدعي الرؤية والتفكير والإعداد، لا يتصور أن يكون موجودا في العصر الجاهلي؛ إذ أن هذا اللون من النثر إنما يلائم نوعا من الحياة لم يكن قد تهيأ للعرب إذ ذاك. فهذه الحياة الأولية الفطرية السهلة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام لم تكن تسمح بقيام هذا اللون من الكتابة الفنية التي تستدعي بطبيعتها الرؤية، والتفكير، ووجود جماعة إنسانية منظمة تسودها أوضاع سياسية واجتماعية معقدة. وهذا النثر المنسوب إلى الجاهليين ليس إلا شيئا منحولا مدسوسا عليهم. حيث إنه على هذا النحو الذي روي به لا يكاد يمثل الحياة الجاهلية تمثيلا كاملا. فهذه الخطب، والوصايا، والسجع، والكلام الذي ينسب لقس بن ساعدة،

---

[1]– لنثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك، المكتبة العصرية، بيروت، لاط، لاتا، ج: 1، ص: 50 و مابعدها

[2]–ا لأدب العربي بين الجاهلية و الاسلام: د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار التأليف، القاهرة، ط 1، 1952م، ص:78

وأكثم بن صيفي، وغيرهما يكفي أن ننظر إليه نظرة واحدة لنرده بأجمعه إلى العصور الإسلامية التي انتحلت فيها كل هذه الأشياء؛ لنفس الأسباب التي انتحل الشعر من أجلها وأضيف إلى الجاهليين".[1]

ويتحدث شوقي ضيف عن نشأة النثر الفني في الأدب العربي بقوله «نحن لا نغلو هذا الغلو الذي جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفني منذ العصر الجاهلي، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف في مرحلة وسطى بين الرأيين، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق، وهو العصر الإسلامي".[2]

النثر في العصر الإسلامي:

النثر الفني في عهد النبوة، لم يكد يختلف اختلافا جوهريا عن النثر الجاهلي. «دخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام، بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها. وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه، ويلتزم أصولا محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور".[3]

أما أغراض النثر ومعانيه، فإنها بلا شك قد تغيرت تغيرا محسوسا بظهور الإسلام، و «تلوّن النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات، وكان علي كل حال أدبا مطبوعا. وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصيلة".[4]

النثر في العصر الأموي:

كانت الكتابة ضرورة إدارية ملحة لا غنى عنها في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، في المكاتبات والدواوين المختلفة. كما كانت ضرورة اجتماعية لا غنى عنها في المعاملات. وكانت كذلك ضرورة

---

[1]– في الأدب الجاهلي: د. طه حسين، مطبعة فاروق، القاهرة، لاط، 1933م، ص: 369؛ ومن حديث الشعر والنثر: د. طه حسين، مطبعة الصاوي، القاهرة، ط 1، 1936م، ص 24 :وما بعدها

[2]– شوقي ضيف، لفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 104

[3]– مواكب الأدب العربي عبرالعصور: د. عمر الدقاق، طلاس، دمشق، ط 1، 1988، ص: 77

[4]– لجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم): حنا الفاخوري، منشورات ذوي القربى، قم، ط 3، 1427هـ، ص: 322

علمية لا غنى عنها في الحركة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره. ونتيجة لذلك كله توسع انتشار الخط واستعمال الكتابة، إبان ذلك العصر، توسعا عظيما، نظراً لإقبال الناس على طلبه. يقول الدكتور شوقي ضيف: «أن الكتابة نمت في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات، وقد ألفوا فعلا كتبا كثيرة"[1] وقد كانت لمن يعرف الكتابة مكانة رفيعة عند الناس، إذ كانوا يعرفون له قدرة، وكان سعيد بن العاص يردد دائماً قوله: «من لم يكتب فيمينه يسرى"[2].

لعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقي الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة[3]، وتعقد الحياة السياسية، وكثرة الأحزاب والمذاهب..[4] وقد تجلت بواكير الكتابة في أواخر العصر الأموي بفضل موهبة عبدالحميد بن يحيى الكاتب .«ولقد أجمع النقاد والمؤرخون في القديم والحديث على أن عبدالحميد إمام طور جديد في الكتابة العربية، وأنه هو الذي وضع الأساس لهذا المنهج الكتابي الذي اقتفاه الكتاب من بعده، وهو «أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضربت ببلاغته الأمثال".[5] و«كان عبدالحميد أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر"[6]. وقال ابن النديم: «عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل".[7]

النثر في العصر العباسي:

زخر العصر العباسي بالأحداث التاريخية، والتقلبات السياسية، كما زخر بالتطورات الاجتماعية التي نقلت العرب من حال إلى حال، وقد كان لكل هذا، فضلا عن نضج العقول بالثقافة، أثر واضح في تطوير الأدب بعامة، والكتابة بصفة خاصة. لقد تقدمت الكتابة الفنية في هذا العصر تقدما محسوسا؛ وسارت شوطا بعيدا في سبيل القوة والعمق والاتساع.

---

[1]– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 100

[2]– صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، ج:1، ص: 37

[3]– النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: عبد الحكيم بلبع، مكتبة الأنجلو المصرية، لاط، لاتا، ص:122

[4]– لمصدر نفسه، ص: 125.

[5]– شوقي ضيف، لفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 114

[6]– العقد الفريد: ابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، لاط، 1942 م ،ج:2،ص: 106.

[7]– لفهرست: ابن النديم، دار المعرفة، بيروت، لاط، لاتا، ص: 170

و«أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوره امتدادا للقديم؛ وكان في بعضها الآخر مبتكرا لا عهد للعرب به"[1].

وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثا على النهوض بالكتابة، داعيا إلى ارتفاع شأنها، وسمو منزلتها، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزا على تجويدها والتأنق في أساليبها"[2].

إن الكتابة كانت جواز عبور إلى الوزارة وبعض الوظائف المرموقة في مرافق الدولة لذلك كان على الراغبين في الوصول إلى هذه المناصب العليا إتقان صناعة الكتابة حتى يحققوا أهدافهم التي كانوا يطمحون إليها".[3]

والأغراض التى عبر عنها النثر الفني في هذا العصر قد اختلفت و«بعد أن كان النثر الأموي خطابته وكتابته منصرفا بوجه عام إلى أغراض سياسية وحزبية، ولم يتجه إلى الأغراض الأخرى إلا في صورة ضئيلة، فانه في العصر العباسي قد اتجه إلى كثير من الأغراض والموضوعات الشخصية والاجتماعية والإنسانية؛ كالمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والتهنئة والتعزية والاستعطاف، والوصف والنسيب والفكاهة والنصح".[4].

ونستطيع القول بأن النثر خطا خطوة واسعة؛ فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط؛ بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت، وأخيلته قد شحذت؛ لأن مشاهد الحياة ومقوماتها العامة قد تغيرت.

مظاهر نهضة النثر في العصر العباسي:

1. تنوع فنونه وأغراضه: فقد تناول كل مجالات الحياة واستخدمته الدولة في الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية.
2. وصول الكتاب إلى المناصب الوزارية.
3. أنه أصبح وعاء لثقافات جديدة، كانت نتيجة لامتزاج الفكر العربي بأفكار الأمم الأخرى.
4. رقي الأفكار وعمق المعاني.

---

[1]– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: 125

[2]– الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، 1990م، ص312

[3]– أعلام في النثر العباسي: حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1993م، ص18

[4]– عبد الحكيم بلبع النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص: 148.

5. التفنن في أساليبه وظهور مدارس متنوعة

أسباب نهضة النثر في العصر العباسي:

1- استقرار الأمور في الدولة واتساع العمران، وما يتبع ذلك من رخاء.

2- النضج العقلي وظهور آثار التقدم الفكري في الدولة.

3 – ظهور أجيال جديدة من المثقفين من أبناء الأمم المستعربة الذين جمعوا إلى الثقافة العربية الأصيلة فنونا جديدة من ثقافات آبائهم الفرس، الهنود و اليونان.

4- تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم.

5- وصول الكتاب إلى المناصب الكبيرة جعل الكتابة مطمح كل راغب في الجاه والسلطان.

6- التنافس بين الكتاب في سبيل الإجادة الفنية.

7- كثرة المذاهب الكلامية وحاجة كل مذهب إلى التأييد وشرح مبادئه.

أهم أنواع النثر في العصر الجاهلي

1- الخطابة: فن الوصول إلى قلوب الجماهير وإقناعهم عن طريق التأثير العاطفي بكلام بليغ وموجز واستخدمت في الدفاع عن القوم أو التحريض على القتال ونصرة الضعيف واستخدمها الملوك في رسائلهم وفي المناسبات الاجتماعية المختلفة. قس بن ساعدة الإيادي، عدي بن زيد.

2- الأمثال: المثل قول محكم الصياغة، موجز العبارة، بليغ التعبير، يوجز تجربة إنسانية عميقة، مضمرة ومختزلة بألفاظه، نتجت عن حادثة أو قصة قيل فيها المثل، ويضرب في الحوادث المشابهة لها. يُقال في مناسبات معينه مشابهة للوقائع التي حصلت قديمًا. وكان للجاهليين حظ وافر وتراث كبير من تلك الأمثال، فالعربي بطبعه يَميل إلى تزيين كلامه وتقويته بضرب الأمثال, ومنها قولهم: " تجوع الحرة ولا تأكل بثديها". من أسباب انتشار الأمثال وشيوعها: خفته وحسن العبارة، وعمق ما فيها من حكمة لاستخلاص العبر، وإصابتها للغرض المنشودة منها، والحاجة إليها وصدق تمثيلها للحياة العامة ولأخلاق الشعوب."

3- الحكم: الحكمة قول موجز مشهور صائب الفكرة، رائع التعبير، يتضمن معنى مسلماً به، يهدف عادة إلى الخير والصواب، به تجربة إنسانية عميقة.

من أسباب انتشار الحكمة اعتماد العرب على التجارة واستخلاص العظة من الحوادث، نفاذ البصيرة والتمكن من ناصية البلاغة. وكان من أهم خصائصها ؛روعة التشبيه، وقوة اللفظ، ودقة التشبيه، وسلامة الفكرة مع الإنجاز .

4- سجع الكهان: "أسلوب مسجع حافل بالأقسام والإبهام, وإغراب يحتمل ألوانًا من التأويل.والكهان عند العرب القدماء هم طائفة ادَّعت معرفة الغيبيات والمستقبل بما سُخِّر لهم من الجن الذين يسترقون السمع من السماء. وهذا الضرب من النثر تلاشى وانتهى بمولد النبي محمد صلى عليه وسلم فلم تَعد الجن تسترق السمع, قال تعالى :" وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(9)"سورة الجن.

5- القصص: وقائع وأحداث تناولت في موضوعاتها أخبار الأمم السابقة مثل أخبار العرب البائدة, وارم ذات العماد, وعام الفيل, ومأرب وسيل العرم ,وغيرها. رواها القُصاصُ في أوقات سمرهم في الليل وحول مضارب خيامهم وفي مجالس أهل القرى والحضر.وقد دخل عليها التحريف والتبديل.

6- الوصايا: الوصية لون من ألوان النثر التي عرفها العرب في الجاهلية؛ وهي قولٌ حكيم صادر عن مجرّب خبير، يوجهه إلى من يحب لينتفع به، أو من هو أقل منه تجربة. ذو الأصبع العدواني يوصي ابنه. أمامة بنت الحارث توصي ابنتها ليلة الزفاف.